



شيخ الإسلام ابن تيمية حياته ومناقبه [3-1]

هذه الترجمة لشيخ الإسلام ابن تيمية عبارة عن نبذة يسيرة مفيدة وممتعة وجديرة بالقراءة اختصرتها من كتاب "الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية" للحافظ المحدث عمر البزار أحد تلاميذه .

ذكر منشأه وعمره رضي الله عنه وأرضاه :

أما مولده فكان كما أخبرني به غير واحد من الحفاظ انه ولد في حران فيعاشر ربيع الأول سنة (661 هـ) وبقي بها إلى أن بلغ سبع سنين ثم انتقل به والده - رحمة الله - إلى دمشق المحروسة فنشأ بها أتم إنشاء وأزakah وأنبته الله أحسن النبات وأوفاه وكانت النجابة عليه في صغره لائحة ودلائل العناية فيه واضحة . أخبرني من أثق به عن من حدثه أن الشيخ - رضي الله - عنه في حال صغره كان إذا أراد المضي إلى المكتب يعترضه يهودي كان منزله بطريقه بمسائل يسألها عنها لما كان يلوح عليه من الذكاء والفهم وكان يجيبه عنها سريعاً حتى تعجب منه ثم انه صار كلما اجتاز به يخبره بأشياء مما يدل على بطلان ما هو عليه فلم يلبث أن اسلم وحسن إسلامه وكان ذلك ببركة الشيخ على صغر سنه .

ولم يزل منذ صغره مستغرق الأوقات في الجهد والاجتهاد وختم القرآن صغيراً ثم اشتغل بحفظ الحديث والفقه والعربية حتى برع في ذلك مع ملازمه مجالس الذكر وسماع الأحاديث والآثار ولقد سمع غير كتاب على غير شيخ من ذوي الروايات الصحيحة العالمية أما دواوين الإسلام الكبار كمسند احمد وصحيح البخاري ومسلم وجامع الترمذى وسنن أبي داود السجستانى والنസائى وابن ماجة والدارقطنى فإنه سمع كل واحد منها عدة مرات وأول كتاب حفظه في الحديث الجمع بين الصحيحين للإمام الحميدي وقل كتاب من فنون العلم إلا وقف عليه وكان الله قد خصه بسرعة الحفظ وإبطاء النسيان لم يكن يقف على شيء أو يستمع لشيء غالباً إلا ويبقى على خاطره أما بلفظه أو معناه وكان العلم كأنه قد اخالط بلحمه ودمه وسائله فإنه لم يكن له مستعاراً بل كان له شعاراً ودثاراً لم يزل آباءه أهل الدراسة التامة والنقد والقدم الراسخة في الفضل لكن جمع الله له ما خرق بمثله العادة ووفقه في جميع أمره لإعلام السعادة وجعل مآثره لإمامته من أكبر شهادة حتى اتفق

كل ذي عقل سليم انه ممن عنى نبينا بقوله : (أن الله يبعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها) فلقد أحيا الله به ما كان قد درس من شرائع الدين وجعله حجة على أهل عصره أجمعين والحمد لله رب العالمين .

غزاره علومه ومؤلفاته وسعة نقله :

أما غزاره علومه فمنها ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه ل دقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله وما أودعه الله تعالى فيه من عجائب وفنون حكمه وغرائب نوادره وباهر فصاحته وظاهر ملاحته فإنه فيه من الغاية التي ينتهي إليها والنهاية التي يعود عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجملته والدرس برمه وهو في تفسير بعض آية منها وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار يفعل ذلك بيده من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئاً معيناً بيته ليسعد لتفسيره بل كان من حضر يقرأ ما تيسر ويأخذ هو في القول على تفسيره وكان غالباً لا يقطع إلا ويفهم السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء آخر في معنى ما هو فيه من التفسير لكن يقطع نظراً في صالح الحاضرين ولقد أمل في تفسير { قل هو الله أحد } مجدًا كبيراً و قوله تعالى { الرحمن على العرش استوى } نحو خمس وثلاثين كراسة ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمه لبلغ خمسين مجلداً .

أما معرفته وبصره بسنة رسول الله وأقواله وأفعاله وقضاياها ووقائعها وغزوتها وسراباها وبعوتها وما خصه الله تعالى من كراماته ومعجزاته ومعرفته بتصحیح المنقول عنه وسقیمه وبقیة المنقول عن الصحابة رضي الله عنهم في أقوالهم وأفعالهم وقضاياهم وفتاویهم وأحوالهم وأحوال مجاهداتهم في دین الله وما خصوا به من بين الأمة فإنه كان - رضي الله عنه - من أضبط الناس لذلك وأعرفهم فيه وأسرعهم استحضاراً لما يريد منه فإنه قل أن ذكر حدیثاً في مصنف أو فتوى أو استشهد به أو استدل به إلا وعزاه في أي دواوين الإسلام هو ومن أي قسم من الصحيح أو الحسن أو غيرهما وذكر اسم روایة من الصحابة وقل أن يسأل عن اثر إلا وبين في الحال حاله وحال أمره وذاكره .

ومن أعجب الأشياء في ذلك أنه في محنته الأولى بمصر لما أخذ وسجين وحيل بينه وبين كتبه صنف عدة كتب صغارةً وكباراً وذكر فيها ما احتاج إلى ذكره من الأحاديث والآثار وأقوال العلماء وأسماء المحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم وعوا كل شيء من ذلك إلى ناقليه وقاتلية بأسمائهم وذكر أسماء الكتب التي ذكر فيها وأي موضع هو منها كل ذلك بيده من حفظه لأنه لم يكن عنده حينئذ كتاب يطالعه ! ونقيبت واختبرت واعتبرت فلم يوجد فيها بحمد الله خلل ولا تغير ومن جملتها كتاب " الصارم المسلول على شاتم الرسول " وهذا من الفضل الذي خصه الله تعالى به .

ومنها ما منحه الله تعالى من معرفة اختلاف العلماء ونحوهم وكثرة أقوالهم واجتهادهم في المسائل وما روی عن كل منهم من راجح ومرجوح ومقبول ومردود في كل زمان ومكان وبصره الصحيح الثاقب الصائب للحق مما قالوه ونقلوه وعزوه ذلك إلى الأماكن التي بها أودعوه حتى كان إذا سُئل عن شيء من ذلك كان جميع المنقول عن الرسول وأصحابه والعلماء فيه من الأولين والآخرين متصور مسطور بإزائه يقول منه ما شاء الله ويدر ما يشاء وهذا قد اتفق عليه كل من رأه أو وقف على شيء من علمه ممن لا يغطي عقله الجهل والهوى .

وأما مؤلفاته ومصنفاته فإنها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملة أسمائها بل هذا لا يقدر عليه غالباً أحد لأنها كثيرة جداً كباراً وصغراء وهي منتشرة في البلدان فقل بلد نزلته إلا ورأيت فيه من تصانيفه .

فمنها ما يبلغ إثنى عشر مجلداً كـ " تلخيص التلبيس على أساس التقديس " وغيره ومنها ما يبلغ سبع مجلدات كـ " الجمع بين العقل والنقل " ومنها ما يبلغ خمس مجلدات ومنها " منهاج الاستقامة والاعتدال " ونحوه ومنها ما يبلغ ثلات مجلدات كـ " الرد على النصارى وشبهه " ومنها مجلدان كـ " نكاح المحل وإبطال الحيل " و " شرح العقيدة الأصبهانية " ومنها مجلد ودون ذلك وهذا القسمان من مؤلفاته فهي كثيرة جداً لا يمكنني استقصاؤها لكن انظر بعضها إستئنasaً .

كتاب "تفسير سورة الإخلاص" مجلد كتاب "الكلام على قوله عز وجل الرحمن على العرش استوى" كتاب "الفرقان المبين بين الطلاق واليمين" كتاب "الفرق بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان" كتاب "افتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم" كتاب "الفتاوى" كتاب "أحكام الطلاق" كتاب "اعتقاد الفرقة الناجية" كتاب "رفع الملام عن الأئمة الأعلام" كتاب "تقرير مسائل التوحيد" كتاب "الاستغاثة والتسلل" كتاب "المسائل الحموية" كتاب "المسائل المفردة" ولا يليق هذا المختصر بأكثر من هذا القدر من مؤلفاته وإنما فيمكن تعداد ما ينفيه على المؤمنين لكن لم نر الإطالة بذلك.

وأما فتاويه ونصوصه وأجوبيه على المسائل فهي أكثر من أن اقدر على إحصائها لكن دون بمصر منها على أبواب الفقه سبعة عشر مجلداً وهذا ظاهر مشهور وجامع أصحابه أكثر من أربعين ألف مسألة وقل أن وقعت واقعة وسئل عنها إلا وأجاب فيها بديهية بما بهر واشتهر وصار ذلك الجواب كالمحض الذي يحتاج فيه غيره إلى زمن طويل ومطالعة كتب وقد لا يقدر مع ذلك على إبراز مثله.

أخبرني الشيخ الصالح تاج الدين محمدالمعروف بابن الدوري أنه حضر مجلس الشيخ - رضي الله عنه - وقد سأله يهودي عن مسألة في القدر قد نظمها شعراً في ثمانية أبيات فلما وقف عليها فكر لحظة يسيرة وانشأ يكتب جوابها وجعل يكتب ونحن نظن أنه يكتب ثلثاً فلما فرغ تأمله من حضر من أصحابه وإذا هو نظم في بحر أبيات السؤال وفافيتها تقرب من مائة وأربعة وثمانين بيتاً وقد أبرز فيها من العلوم ما لو شرح بشرح لجاء شرحه مجلدين كبيرين هذا من جملة بواهره وكم من جواب فتوى لم يسبق إلى مثله.

وأما ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بدمشق لا أفتتها وكان لا يهبه شيئاً من العلم ليلاقيه ويورده بل يجلس بعد أن يصلني ركتعين فيحمد الله ويثنى عليه ويصلني على رسوله صلى الله عليه وسلم على صفة مستحسنة مستعدبة لم اسمعها من غيره ثم يشرع فيفتح الله عليه إيراد علوم وغواصات ولطائف ودقائق وفنون ونقول واستدلالات بأيات وأحاديث وأقوال العلماء ونصر بعضها وتبيان صحته أو تزييف بعضها وإيضاح حجته واستشهاد بأشعار العرب وربما ذكر اسم ناظمها وهو مع ذلك يجري كما يجري السيل وفيض كما يفيض البحر ويصير منذ يتكلم إلى أن يفرغ كالغالب عن الحاضرين مغمضاً عينيه وذلك كله مع عدم فكر فيه أو روية من غير تعجرف ولا توقف ولا لحن بل فيض الهي حتى يبهر كل سامع وناظر فلا يزال كذلك إلى أن يصمت وكانت أراه حينئذ كأنه قد صار بحضوره من يشغل عن غيره ويقع عليه إذ ذاك من المهابة ما يرعد القلوب ويحير الأبصار والعقول وكان لا يذكر رسول الله قط إلا ويصلني ويسلم عليه ولا والله ما رأيت أحداً أشد تعظيمياً لرسول الله ولا احرص على أتباعه ونصر ما جاء به منه حتى إذا كان ورد شيئاً من حديثه في مسألة ويرى أنه لم ينسخه شيء غيره من حديثه يعمل به ويقضي ويفتي بمقتضاه ولا يلتفت إلى قول غيره من المخلوقين كائناً من كان وقال - رضي الله عنه - كل قائل إنما يحتاج لقوله لا به ألا الله ورسوله.

وكان إذا فرغ من درسه يفتح عينيه ويقبل على الناس بوجه طلق بشيش وخلق دمث كأنه قد لقيهم حينئذ وربما اعتذر إلى بعضهم من التقصير في المقال مع ذلك الحال ولقد كان درسه الذي يورده حينئذ قدر عدة كراريس وهذا الذي ذكرته من أحوال درسه أمر مشهور يوافقني عليه كل حاضر بها وهم بحمد الله خلق كثير لم يحصر عددهم علماء ورؤساء وفضلاء من القراء والمحدثين والفقهاء والأدباء وغيرهم من عوام المسلمين.

في ذكر معرفته للشريعة الإسلامية :

أما معرفته ب الصحيح المنقول وسقيمه فإنه في ذلك من الجبال التي لا ترتقي ذروتها ولا ينال سعادتها قل أن ذكر له قول إلا وقد أحاط علمه بمبتكره وذاكره وناقله وأثره أو راو إلا وقد عرف حاله من جرح وتعديل بإجمال وتفصيل.

حکى من يوثق بنقله انه كان يوماً بمجلس ومحدث يقرأ عليه بعض الكتب الحديثية وكان سريع القراءة فعارضه الشيخ في اسم رجل في سند الحديث قد ذكره القاريء بسرعة فذكر الشيخ أن اسمه فلان بخلاف ما قرأ فأعتبروه فوجدوه كما قال

الشيخ فانظر إلى هذا الإدراك السريع والتنبيه الدقيق العجيب ولا يقدر على مثله إلا من اشتدت معرفته وقوى ضبطه .

وأما ما وبه الله تعالى ومنه به من استنباط المعاني من الألفاظ النبوية والأخبار المروية وإبراز الدلائل منها على المسائل وتبين مفهوم اللفظ ومنطوقه وإيصال المخصوص للعام والمقييد للمطلق والناسخ للمنسوخ وتبيين ضوابطها ولوازمها وملزوماتها وما يتربى عليها وما يحتاج فيه إليها حتى كان إذا ذكر آية أو حديثاً وبين معانيه وما أريد به أعجب العالم الفطن من حسن استنباطه ويدعوه ما سمعه أو وقف عليه منه .

ولقد سئل يوماً عن الحديث : (لعن الله المحل والمحل له) فلم يزل يورد فيه وعليه حتى بلغ كلامه فيه مجلداً كبيراً .
وقل إن كان يذكر له حديث أو حكم فيشاء أن يتكلم عليه يومه أجمع إلا فعل أو يقرأ بحضرته آية من كتاب الله تعالى ويشرع في تفسيرها إلا وقطع المجلس كله فيها .

وأما ما خصه الله تعالى به من معارضة أهل البدع في بدعهم أهل الأهواء في أهواهم وما ألقى في ذلك من دحض أقوالهم وترنيف أمثالهم وإشكالهم وإظهار عوارهم وانتهالهم وتبييد شملهم وقطع أوصالهم وأجوبته عن شبههم الشيطانية ومعارضتهم النفسانية للشريعة الحنفية المحمدية بما منحه الله تعالى به من البصائر الرحمانية والدلائل النقاية والتوضيحات العقلية حتى ينكشف قناع الحق وبيان بما جمعه في ذلك ألقى الكذب من الصدق حتى لو أن أصحابها أحيا ووفقاً لغير الشفاء لأذعنوا له بالتصديق ودخلوا في الدين العتيق .

ولقد وجب على كل من وقف عليها وفهم ما لديها أن يحمد الله تعالى على حسن توفيقه هذا الإمام لنصر الحق بالبراهين الواضحة العظام .

حدثني غير واحد من العلماء الفضلاء النبلاء الممعنين بالخوض في أقوال المتكلمين لإصابة الثواب وتميز القشر من الباب أن كلاً منهم لم يزل حائراً في تجازب أقوال الأصوليين ومعقولاتهم وأنه لم يستقر في قلبه منها قول ولم يبن له من مضمونها حق بل رأها كلها موقعة في الحيرة والتضليل وجلها معنٍ بتخلف الأدلة والتعليل وأنه كان خائفاً على نفسه من الوقوع بسببها في التشكيك والتعطيل حتى من الله تعالى عليه بمطالعته مؤلفات هذا الإمام أحمد ابن تيمية شيخ الإسلام وما أورده من النقليات والعلقيات في هذا النظام فما هو إلا أن وقف عليها وفهمها فرأها موافقة للعقل السليم وعلمها حتى انجل ما كان قد غشيه من أقوال المتكلمين من الظلام وزال عنه ما خاف أن يقع فيه من الشك وظفر بالمرام .

ومن أراد اختبار صحة ما قلته فليقف بعين الإنصاف العربية عن الحسد والانحراف إن شاء على مختصراته في هذا الشأن كـ "شرح الأصبغانية" ونحوها وإن شاء على مطولة كـ "تأليص التلبيس من تأسيس التقديس" و "الموافقة بين العقل والنقل" و "منهاج الاستقامة والاعتدال" فإنه والله يظفر بالحق والبيان ويستمسك بأوضح برهان ويزن حينئذ في ذلك بأصح ميزان .
ولقد أكثر - رضي الله عنه - التصنيف في الأصول فضلاً عن غيره من بقية العلوم فسألته عن سبب ذلك والتمس منه تأليف نص في الفقه يجمع اختياراته وترجيحاته ليكون عمدة في الإفتاء فقال لي ما معناه : "الفروع أمرها قريب ومن قلد المسلم فيها أحد العلماء المقلدين جاز له العمل بقوله ما لم يتiquن خطأه وأما الأصول فإني رأيت أهل البدع والضلاليات والأهواء كالمتفلسة والباطنية والمالحنة والقائلين بوحدة الوجود والدهرية والقدرة والنصرية والجهمية والحلولية والمعطلة والمجسمة والمشبهة والراوندية والكلابية والسلبية وغيرهم من أهل البدع قد تجاوزوا فيها بأزمة الضلال وبيان لي أن كثيراً منهم إنما قصد إبطال الشريعة المقدسة المحمدية الظاهرة العالية على كل دين وإن جمهورهم أوقع الناس في التشكيك في أصول دينهم ولهذا قل أن سمعت أو رأيت معرضاً عن الكتاب والسنة مقبلاً على مقالاتهم إلا وقد تزندق أو صار على غير يقين في دينه واعتقاده .

فلما رأيت الأمر على ذلك بان لي انه يجب على كل من يقدر على دفع شبههم وأباطيلهم وقطع حجتهم وأضاليلهم أن يبذل جهده ليكشف رذائلهم ويزيف دلائلهم ذباً عن الملة الحنفية والسنة الصحيحة الجلية .

ولا والله ما رأيت فيهم أحداً من صنف في هذا الشأن وادعى علوم المقام إلا وقد ساعد بمضمون كلامه في هدم قواعد دين الإسلام وسيب ذلك إعراضه عن الحق الواضح المبين وعن ما جاءت به الرسل الكرام عن رب العالمين وأتباعه طرق الفلسفة في الاصطلاحات التي سموها بزعمهم حكميات وعقليات وإنما هي جهالات وضلالات وكونه التزمها معرضاً عن غيرها أصلاً ورأساً فغلبت عليه حتى غطت على عقله السليم فتختبط حتى خبط فيها عشوا ولم يفرق بين الحق والباطل وإن الله أعظم لطفاً بعباده أن لا يجعل لهم عقلاً يقبل الحق ويثبته ويبطل الباطل وينفيه لكن عدم التوفيق وغلبة الهوى أوقع من أوقع في الضلال وقد جعل الله تعالى العقل السليم من الشوائب ميزاناً يزن به العبد الواردات فيفرق به بين ما هو من قبيل الحق .

وما هو من قبيل الباطل ولم يبعث الله الرسل إلا إلى ذوي العقل ولم يقع التكليف إلا مع وجوده فكيف يقال انه مخالف لبعض ما جاءت به الرسل الكرام عن الله تعالى هذا باطل قطعاً يشهد له كل عقل سليم لكن ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور " .

قال الشيخ الإمام - قدس الله روحه - : " فهذا ونحوه هو الذي أوجب أنى صرفت جل همي إلى الأصول وال زمني إن أوردت مقالاتهم وأجبت عنها بما انعم الله تعالى به من الأجرة النقلية والعقلية " .

قلت : وقد أبان بحمد الله تعالى فيما ألف فيها لكل بصير الحق من الباطل وإعانته بتوفيقه حتى رد عليهم بدعهم وأراءهم وخدعهم وأهواءهم مع الدلائل النقلية بالطريقة العقلية حتى يجib عن كل شبهة من شبههم بعدة أجرة جلية واضحة يعقلاها كل ذي عقل صحيح ويشهد لصحتها كل عاقل رجيع .

فالحمد لله الذي من علينا برؤيته وصحته فقد جعله الله حجة على أهل هذا العصر المعرض غالباً أهله عن قليله وكثيره لاشغالهم بفاني الدنيا مما يحصل به باقي الآخرة فلا حول ولا قوة إلا بالله .

لكن الله ذو القوة المتين ضمن حفظ هذا الدين إلى يوم الدين وأظهره على كل دين فالحمد لله رب العالمين .

في ذكر تعبده :

أما تعبده - رضي الله عنه - فإنه قل إن سمع بمثله لأنه كان قد قطع جل وقته وزمانه فيه حتى أنه لم يجعل لنفسه شاغلت تشغله عن الله تعالى ما يراد له لا من أهل ولا من مال .

وكان في ليله متفرداً عن الناس كلهم خالياً بربه عز وجل ضارعاً مواطباً على تلاوة القرآن العظيم مكرراً لأنواع العبادات الليلية والنهرارية وكان إذا ذهب الليل وحضر مع الناس بدأ بصلوة الفجر يأتي بسنثها قبل إتيانه إليهم وكان إذا احرم بالصلاة تکاد تتخلع القلوب لهيبة إتيانه بتکبيرة الإحرام فإذا دخل في الصلاة ترتعد أعضاؤه حتى يميله يمنة ويسرة وكان إذا قرأ يمد قراءته مداً كما صح في قراءة رسول الله وكان ركوعه وسجوده وانتصابه عنهما من أكمل ما ورد في صلاة الفرض وكان يخفف جلوسه للتشهد الأول خفة شديدة ويجهر بالتسليم الأولى حتى يسمع كل من حضر فإذا فرغ من الصلاة أثنى على الله عز وجل هو ومن حضر بما ورد من قوله : " اللهم أنت السلام ومنك السلام تبارك يا ذا الجلال والإكرام " ثم يقبل على الجماعة ثم يأتي بالتهليمات الواردات حينئذ ثم يسبح الله ويحمده ويكبره ثلاثة وثلاثين ويختتم المائة بالتهليل كما ورد وكذا الجماعة ثم يدعو الله تعالى له ولهم وللمسلمين أجناس ما ورد .

وكان غالب دعائه: " اللهم انصرنا ولا تنصر علينا وامكر لنا ولا تمكر علينا وأهدنا ويسر الهدى لنا اللهم اجعلنا لك شاكرين لك ذاكرين لك أواهين لك مخبتين إليك راغبين إليك راهبين لك مطاويع ربنا تقبل توباتنا واغسل حوباتنا وثبت حججنا وأهد قلوبنا اسلل سخيمة صدورنا " يفتحه ويختمه بالصلاحة على النبي ثم يشرع في الذكر.

وكان قد عرفت عادته لا يكلمه أحد بغير ضرورة بعد صلاة الفجر فلا يزال في الذكر يسمع نفسه وربما يسمع ذكره من إلى جانبه مع كونه في خلال ذلك يكثر من تقليب بصره نحو السماء هكذا دأبه حتى ترتفع الشمس ويزول وقت النهی عن الصلاة

و كنت مدة إقامتي بدمشق ملازمـه جـل النـهـار وكثـيرـاً من اللـيل و كان يـدـينـي مـنـه حـتـى يـجـلـسـني إـلـى جـانـبـه و كـنـتـ اـسـمـعـ ما يـتـلـوـ .
و ما يـذـكـرـ حـيـنـئـذـ فـرـأـيـتـهـ يـقـرـأـ الفـاتـحةـ وـ يـكـرـرـهـ وـ يـقـطـعـ ذـلـكـ الـوقـتـ كـلـهـ اـعـنـيـ منـ الفـجـرـ إـلـى اـرـفـاعـ الشـمـسـ فـي تـكـرـيرـ تـلاـوتـهاـ .
فـفـكـرـتـ فـي ذـلـكـ لـمـ قـدـ لـزـمـ هـذـهـ السـوـرـةـ دـوـنـ غـيـرـهـ فـبـاـنـ لـيـ وـالـلـهـ اـعـلـمـ أـنـ قـصـدـهـ بـذـلـكـ أـنـ يـجـمـعـ بـتـلـاوـتـهـ حـيـنـئـذـ بـيـنـ مـا وـرـدـ فـيـ
الـأـحـادـيـثـ وـمـاـ ذـكـرـهـ الـعـلـمـاءـ هـلـ يـسـتـحـبـ حـيـنـئـذـ تـقـدـيمـ الـأـذـكـارـ الـوـارـدـةـ عـلـىـ تـلـاوـةـ الـقـرـآنـ أـوـ الـعـكـسـ فـرـأـيـ .ـ رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ .ـ أـنـ

فـيـ الـفـاتـحةـ وـتـكـرـرـهـ حـيـنـئـذـ جـمـعـاـ بـيـنـ الـقـوـلـيـنـ وـتـحـصـيـلـتـيـنـ وـهـذـاـ مـنـ قـوـةـ فـطـنـتـهـ وـثـاقـبـ بـصـيرـتـهـ .

ثـمـ اـنـهـ كـانـ يـرـكـعـ فـإـذـاـ أـرـادـ سـمـاعـ حـدـيـثـ فـيـ مـكـانـ آـخـرـ سـارـعـ إـلـىـ فـورـهـ مـعـ مـنـ يـصـحـبـهـ فـقـلـ أـنـ يـرـاهـ أـحـدـ مـمـنـ لـهـ بـصـيرـةـ إـلـاـ
وـانـكـبـ عـلـىـ يـدـيـهـ يـقـبـلـهـمـ حـتـىـ اـنـهـ كـانـ إـذـاـ رـأـهـ أـرـبـابـ الـمـعـاـيـشـ يـتـخـطـونـ مـنـ حـوـانـيـتـهـمـ لـلـسـلـامـ عـلـيـهـ وـالـتـبـرـكـ بـهـ وـهـوـ مـعـ هـذـاـ
يـعـطـيـ كـلـاـ مـنـهـمـ نـصـيـبـاـ وـافـرـاـ مـنـ السـلـامـ وـغـيـرـهـ .

وـإـذـاـ رـأـيـ مـنـكـراـ فـيـ طـرـيقـهـ أـزـالـهـ أـوـ سـمـعـ بـجـنـازـةـ سـارـعـ إـلـىـ الـصـلـاـةـ عـلـيـهـاـ أـوـ تـأـسـفـ عـلـىـ فـوـاتـهـاـ وـرـبـمـاـ ذـهـبـ إـلـىـ قـبـرـ صـاحـبـهـاـ
بـعـدـ فـرـاغـهـ مـنـ سـمـاعـ الـحـدـيـثـ فـصـلـيـ عـلـيـهـ ثـمـ يـعـودـ إـلـىـ مـسـجـدـهـ فـلـاـ يـزالـ تـارـةـ فـيـ إـفـتـاءـ الـنـاسـ وـتـارـةـ فـيـ قـضـاءـ حـوـائـجـهـمـ حـتـىـ
يـصـلـيـ الـظـهـرـ مـعـ الـجـمـاعـةـ ثـمـ كـذـلـكـ بـقـيـةـ يـوـمـهـ .

وـكـانـ مـجـلسـهـ عـامـاـ لـكـبـيرـ وـالـصـغـيرـ وـالـحـقـيرـ وـالـحـقـيلـ وـالـحـقـيرـ وـالـحـرـ وـالـعـبـدـ وـالـذـكـرـ وـالـأـنـثـىـ قـدـ وـسـعـ عـلـىـ كـلـ مـنـ يـرـدـ عـلـيـهـ مـنـ النـاسـ
يـرـىـ كـلـ مـنـهـمـ فـيـ نـفـسـهـ أـنـ لـمـ يـكـرـمـ أـحـدـاـ بـقـدـرـهـ ثـمـ يـصـلـيـ الـمـغـرـبـ ثـمـ يـتـطـوـعـ بـمـاـ يـسـرـهـ اللـهـ ثـمـ اـقـرـأـ عـلـيـهـ مـنـ مـؤـلـفـاتـهـ أـوـ غـيـرـيـ
فـيـفـيـدـنـاـ بـالـطـرـائـفـ وـيـمـدـنـاـ بـالـلـطـائـفـ حـتـىـ يـصـلـيـ الـعـشـاءـ ثـمـ بـعـدـهـاـ كـمـاـ كـانـ مـنـ الـإـقـبـالـ عـلـىـ الـعـلـومـ إـلـىـ أـنـ يـذـهـبـ هـوـيـ مـنـ
الـلـيلـ طـوـيـلـ وـهـوـ فـيـ خـلـالـ ذـلـكـ كـلـهـ فـيـ النـهـارـ وـالـلـيلـ لـاـ يـزالـ يـذـكـرـ اللـهـ تـعـالـىـ وـيـوـحـدـهـ وـيـسـتـغـفـرـهـ .

وـكـانـ - رـضـيـ اللـهـ عـنـهـ - كـثـيرـاـ مـاـ يـرـفـعـ طـرـفـهـ إـلـىـ السـمـاءـ لـاـ يـكـادـ يـقـتـرـ مـنـ ذـلـكـ كـأنـهـ يـرـىـ شـيـئـاـ يـثـبـتـهـ بـنـظـرـهـ فـكـانـ هـذـاـ دـاـبـةـ مـدـةـ
إـقامـتـيـ بـحـضـرـتـهـ .

فـسـبـحـانـ اللـهـ مـاـ اـقـصـرـ مـاـ كـانـ يـاـ لـيـتـهـ كـانـتـ طـالـتـ وـلـاـ وـالـلـهـ مـاـ مـرـ عـلـىـ عـمـرـيـ إـلـىـ الـآنـ زـمـانـ كـانـ أـحـبـ إـلـىـ مـنـ ذـلـكـ الـحـيـنـ
وـلـاـ رـأـيـتـنـيـ فـيـ وـقـتـ أـحـسـنـ حـالـاـ مـنـ حـيـنـئـذـ .

وـكـانـ فـيـ كـلـ أـسـبـوـعـ يـعـودـ الـمـرـضـيـ خـصـوصـاـ الـذـينـ بـالـمـارـسـتـانـ .

وـاـخـبـرـنـيـ غـيـرـ وـاحـدـ مـنـ لـاـ يـشـكـ فـيـ عـدـالـتـهـ أـنـ جـمـيعـ زـمـنـ الشـيـخـ يـنـقـضـيـ عـلـىـ مـاـ رـأـيـتـهـ فـأـيـ عـبـادـةـ وـجـهـادـ أـفـضـلـ مـنـ ذـلـكـ
فـسـبـحـانـ الـمـوـفـقـ مـنـ يـشـاءـ لـمـاـ يـشـاءـ .

المصدر: رابطة أدباء الشام

المصادر: